حميد عقبي

ليليث وهايل
(رواية 100 × 50)

خمسون قصة قصيرة جدًا تساوي رو اية قصيرة

شبكة أطياف الثقافية للدراسات والترجمة والنشر

المغرب

الكتاب: ليليث وهايل

المؤلف:حميد عقبي

الإيداع القانوني:2025MO0430

ردمك: ISBN:978-9920-8923-8-4

الطبعة الأولى:2025

لوحة الغلاف: حميد عقبي

جميع الحقوق محفوظة

شبكة أطياف الثقافية
للدراسات و الترجمة والنشر
Atyaf Cultural Network
For Studies,Translation and Publishing
ACNSTP

الرباط- المغرب

https://acnspt. com

info@acnstp. com

الإهداء

إلى روح الصديق،
الكاتب والقاص الفلسطيني محمد طملية

الفصل الأول

لقد توفّيت منذ ساعةٍ واحدة. وجدت نفسي في مكانٍ يفتقدُ الجاذبية الأرضية، ولا توجد وسائل تثبيتٍ للجسد كتلك التي يستخدمها روّاد الفضاء. المكان غير واضح المعالم، الزمن يمرُّ ببطء، ولم يأتِ أي ملاكٍ ليسألني عن أفكاري. الشيء الغريب أنّي أشعر بحاجةٍ ماسّة للتدخين. قبل هذا الحدث بأيامٍ طويلة، درّبت نفسي على تمارين ترك التدخين، وكنتُ أدخّن عشر سجائر.

ـمن يأتيني بسيجارةٍ بأيّ ثمن؟

لا أملك شيئًا، حتى ملابسي ليست على جسدي.

صرختُ وناديت. المكان معتم، جسدي يطفو. لم يقلقني موتي، ولم أسأل نفسي كيف كان ومتى. ما يشغلني هو أن أجد سيجارةً أو يتمّ حقني بالنيكوتين أو أيّ حلّ.

الفصل الثاني

مرّت ثانيةٌ واحدةٌ من موتي، يومٌ مملٌّ يشبه الأيام الممطرة الباردة. أشعر ببعض البرودة تبدأ من أصابع قدمي، من إصبعي الإبهام، وكأنّه يجرُّ بقية أصابع قدمي اليمنى إليه ويضخُّ فيها الزمهرير القارس إلى أن تتثلّج، ثم يحدث هذا لأصابع قدمي اليسرى.

سألت نفسي: أهذه إذن حياة ما بعد الموت؟

ولكن هل تمّ دفني بهذه السرعة؟

أظنُّ أنّي في ثلاجة الموتى. كنتُ قد أوصيتُ بالتبرّع بأعضائي الصالحة للاستخدام، فهل ستُنفّذ وصيّتي؟

يبدو أنّي لا أتذكّر اسمي. ربما نصابُ بفقدان ذاكرةٍ مؤقتة، ثم نعي مكاننا وزماننا. تشتدُّ رغبتي للتدخين وتكبر في رأسي.

يا له من موتٍ غريب!

يتسلّق البرد ساقيَّ ببطء.

الفصل الثالث

الثانيةُ التالية، الساعةُ الأولى من وفاتي، أسمعُ صوتَ صريرِ بابٍ حديدٍ يُفتحُ ثم يُغلق. أرتجفُ ولا أقدرُ أن أهبطَ بجسدي الطافي، أحرّكُ ذراعي.

ربما تنمو أجنحةٌ للموتى ليتأقلموا.

جرّبتُ التحليق كأنّي فرخٌ ضعيفٌ يبحثُ عن أمه. أرى بقعةَ ضوءٍ خافتة، زرقاء، تتحرّكُ ثم تتلاشى.

سأتخيّل شيئًا يجعلُ الوقتَ يمضي وأنسى التدخين. أرغبُ بهرشِ شعري، فإذا بي أكتشفُ أني حليقُ الرأس.

في هذه اللحظة أرى لقطةً لطفلٍ حليقِ الرأس تحت المطر.

أهو أنا؟

حافيًا، يرتعشُ، المطرُ غزير. يقتربُ صبيةٌ ويجبرونه على الركض.

أزقّةٌ ملتوية، بيوتٌ من الحجر. يركضُ الطفلُ، صوتُ ضربةِ الرعد.

انتهى المشهدُ دون أن أعرفَ بقيةَ حكايته.

الفصل الرابع

لا تُوجد ساعةٌ أو وسيلةٌ لقياسِ الزمن، أسمعُ مثلَ الهاتفِ الخفي يُخبرني الآن: مضت ساعةٌ وتبدأُ الثانيةُ الثالثةُ منذَ موتِكَ.

. إذن أنا ميت، البردُ يغتالني ولم يأتِ أحدٌ لاستجوابي.

أشعرُ كأنّي مثلَ الوطواط، كأنَّ ذراعي تطولُ قليلاً، تقصرُ ساقاي. قدرتُ بعدَ جهدٍ أن أُثبّتَ جسدي بعمودٍ وسطَ المكانِ الذي لم أكتشفْ معالمهُ ومساحتَه. أشعرُ ببعضِ الدفءِ يُداعبُ ويفكُّ أصابعَ قدميَّ المتشابكةَ بسببِ البرودة.

أحدهم، شخصٌ ما يتجولُ في الأسفل. أسمعُ صوتَ خطواتِهِ، إنّهُ يسعلُ بشدّة. فجأةً يتلاشى الصوت، صمتٌ مرعبٌ يزيدُ حنيني إلى تدخينِ سيجارةٍ حتى وإن سببتْ لي سعالاً حادًّا.

ضوءٌ خافتٌ وضجيجٌ، ثم صمت. أشمُّ رائحةَ تبغ.

الفصل الخامس

ظننتُ أنَّ رغباتِنا وحاجاتِنا للأشياءِ تنتهي بموتِنا. أخذَ رأسي القليلَ من النيكوتين. بمقدوري أن أقفزَ مثلَ طفلِ الشمبانزي وأنتقلَ بينَ الأعمدةِ المتقاربة. فعلتُ القفزةَ الأولى ونجحتُ رغمَ سطوةِ العتمةِ والبرد. أَدخُلُ في زمنِ الثانيةِ الرابعةِ بعدَ الساعةِ الأولى من دخولي عالمَ الأموات. أشعرُ أنَّ مشرطًا طبيًّا حادًّا يقطعُ جلدي. أه، إذن سيأخذونَ بعضَ الأعضاءِ الجيدة. نزعوا قلبي، قصّوا الرئتَين، ثم أخذوا أعضاءَ الجهازِ الهضمي. تنتهي رغبتي للتدخينِ وأشعرُ براحةٍ جيدة. تخفُّ قسوةُ البردِ بالتدريج. شعرتُ بحركةِ المشارطِ الطبيةِ تُدغدغُ جسدي.

يُسرعونَ في أخذِ محتوياتِ بطني.

أشعرُ بيدٍ تُفتّشُ في صدري. أعادوا قلبي إلى مكانه.

ربما لا يصلحُ لأحدٍ.

الفصل السادس

أرى تفاصيلَ جديدةً للمكانِ بفضلِ أضواءٍ تُشبهُ وقتَ الغروب.
أجدني مُتشبِّثًا بجذعِ شجرةٍ عاريةٍ من الغصون، كنتُ أظنُّها أعمدة. أدخلُ زمنَ الثانيةِ الخامسةِ بعدَ الساعةِ في هذا العالمِ السفلي. أسمعُ صوتَ بكاءِ امرأةٍ شابة، ربما زوجتي.
ماتَ وتركني وحيدة، ساعةٌ وخمسُ ثوانٍ من وفاتِه كأنها دهرٌ من الزمن.
أحدهم بصوتٍ غليظ: الحيُّ أبقى من الميت، لا تزالينَ جميلةً وألفُ واحدٍ يتمناكِ.
ينقطعُ الصوت.
تبكي من أجلي، يوجدُ وغدٌ يريدُها أن تكفَّ.
هذا المكانُ الغريبُ يُشبهُ الكهفَ الضخم، لا أعلمُ مداخلَه ومخارجَه. لمستُ بطني، بدت مُنتفخةً قليلًا. صوتُ أحدهم:
أحضروا دفاترَ الاستجواب.
أشعرُ بالظلامِ الدامسِ والبردِ يعودُ مجددًا.

الفصل السابع

يعودُ ضوءٌ يُشبهُ اللحظاتِ النهاريةَ الأخيرة، أجتهدُ ببصري لرؤيةِ تفاصيلَ جديدةٍ للمكانِ، كأنه يُشبهُ الغابةَ وليسَ الكهف. بعضُ الجذوعِ مائلةٌ أو متراكمةٌ بشكلٍ عشوائيٍّ في الأسفل. أقفزُ إلى جذعٍ آخر، تُعجبني اللعبةُ وأستمرُّ أتنقلُ بهذه الطريقةِ وأنا أضحكُ من شكلي. يعودُ الدفءُ إلى أقدامي وجسدي. أسمعُ صوتًا يُشبهُ جهازَ التنفسِ الاصطناعيَّ وحوارًا:

الآنَ بدايةُ الثانيةِ السادسةِ بعدَ الساعةِ الأولى، لا يزالُ قلبُه ينبض.

هل نُعيدُ كلَّ تلكَ الأعضاءِ التي أخذناها من جسدِه؟

لننتظرْ مرورَ ساعةٍ و99 ثانيةً على الوفاةِ، هذا البروتوكولُ ثمَّ نناقشُ حالتَه.

يختفي الصوت. يصعبُ فهمُ ما يحدثَ وأن أعرفَ من أكون.

أسمعُ صوتَ بكاء.

الفصل الثامن

يرتفعُ صوتُ البكاءِ، أحاولُ أن أتذكَّرَ من تكونُ هذهِ المرأة، أسمعُها: أهداني قصيدةً هذا الصباح، قرأتُها عندَ الظهيرة، تواعدنا أن نلتقيَ بالمساءِ، ما حدثَ شيءٌ لا يُصدَّق، يموتُ بهذه الطريقة.

تصمتُ ويصمتُ معها كلُّ شيء.

أقفزُ إلى جذعٍ قصيرٍ وقريبٍ من سطحِ المكان، لم يعُدْ جسدي بتلكَ الخِفَّة، تعودُ الجاذبيةُ الأرضيةُ بالتدريج، تهبُّ ريحٌ، أشعرُ بلمساتِها، صمتٌ مطبق. ثمَّ صوت: ساعةٌ وسبعُ ثوانٍ، أينَ الدفاتر؟ قد يتمكَّنونَ من استرجاعِه بأجهزتِهم الطبيةِ، لن نسمحَ لهُ بالمغادرة. شخصٌ آخر: يحدثُ هذا للمرةِ الأولى، سأذهبُ لاستخراجِ أمرٍ استثنائيٍّ، لنتمَّ عملنا ونُقيّدَه ميتًا.

يخرجون، يخفتُ الضوء، أسمعُ صوتَ نباحِ كلبٍ حزين.

أهو كَلبي؟

الفصل التاسع

أكادُ أشعرُ بالكلبِ يقتربُ مني، تتضخَّمُ نبرةُ الحزنِ في نباحِه، ومع ذلكَ يبعثُ في جسدي دفئًا لطيفًا. أشعرُ بأنَّهُ مألوفٌ وقريبٌ مني. فجأةً، يحدثُ ما يُشبهُ هزَّةً أرضيةً، فتتساقطُ بعضُ جذوعِ الأشجار. أقفزُ من جذعٍ إلى آخرَ كأنِّي ماوكلي الشجاع. يوجدُ القليلُ من الضوءِ الذي جعلني أرى تشقُّقَ الأرض. أبحثُ عن جدرانٍ أو حدودٍ للمكان، كأنِّي بداخلِ مملكةِ الضياع.

يخيِّمُ السكونُ مرةً أخرى، صوتُ أحدِهم من خارجِ هذا العالم:

ساعةٌ وثمانُ ثوانٍ، لنستعيدهُ بسرعة.

صوتٌ ينبعثُ من المكان:

اسمُه مكتوبٌ في سجلاتِ الموتى.

يردُّ آخر:

نعم، مُسجَّلٌ بالخطِّ الأصفرِ وليسَ الأزرق. تعرفُ الفرقَ بينهما؟

تمطرُ، جسدي يتبلَّلُ.

الفصل العاشر

تزدادُ غزارةُ المطر. فتحتُ فمي حتى امتلأَ بالماءِ، لكنِّي لم أستطعْ بلعَه. أخرجتُه وعدتُ أملأهُ وأفرغُه، كأنِّي أحتاجُ لفعلِ شيءٍ حتى لو كان غبيًّا. يتوقفُ المطرُ فجأةً، حرارةُ هذا الفضاءِ تبدأُ بالارتفاعِ تدريجيًّا. أسمعُ صوتَ ريحٍ، لكنِّي لا أشعرُ بها. الهاتفُ يُخبرني أنِّي هنا منذُ ساعةٍ وتسعِ ثوانٍ. يزدادُ صوتُ الريحِ، ويتغيرُ لونُ الضوءِ إلى البنفسجيِّ الفاتح. يتحركُ الجذعُ الذي أتشبثُ به. أحاولُ القفزَ، لكن جسدي مُلتصقٌ به. كلما حاولتُ سحبَه، يُؤلمني بقوةٍ وأصرخ.

لا أحدَ يسمعني. تتساقطُ الجذوعُ من حولي، وتغرقُ في هوَّةٍ سفليةٍ تبدو ملتهبة. يتصاعدُ دخانٌ بلونٍ أخضر، ويتعالى سعالُ أحدِهم وهو يصرخُ بغضبٍ: سوفَ نُعاقبُ جميعًا.

الفصل الحادي عشر

يهدأُ الزلزالُ الذي عصفَ بالمكان، مالَ الجذعُ الذي تعلَّقتُ به، رؤيتي ضعيفةٌ بسببِ الأبخرةِ، لا أشمُّ رائحةً لها، ربما يفقدُ الموتى هذه الحاسة.

تعودُ الرؤيةُ بالتدريج، لأولِ مرةٍ أرى بعضَ ملامحِ المرأةِ الباكية، تمسحُ الدموعَ بمناديلَ بيضاءَ ناعمة، تقتربُ من غرفةِ العنايةِ المركزة، يخرجُ أحدُهم، تسألهُ عن حالي.

يردُّ محتارًا: هو هنا وهناك، من المبكرِ الحكم، مضت ساعةٌ وندخلُ في الثانيةِ العاشرةِ، لا نعرفُ مصيرَه.

ستعيدونه؟

يمضي الرجلُ، تخرجُ مسرعةً إلى الخارج، يستقبلها كلبٌ من نوعِ الهاسكي، يُسرعُ نحوها، يرتمي في حضنِها.

أحاولُ فكَّ جسدي متحمِّلًا الألم، أنجحُ بالقفز، أستقرُّ على صخرةٍ هرمية. أسمعُ صوتَ بوقٍ، أشخاصٌ يركضونَ نحوي.

الفصل الثاني عشر

تقلُّ كثافةُ الأبخرة، أتمعَّنُ في هذا الفضاءِ كأنَّه مدينةٌ عصفت بها الحربُ فشاخت وذهبت ألوانُها. أنظرُ إلى الأسفل، تبدو الأرضيةُ طينيةً سوداءَ مبللةً. أخشى أن تكونَ متحرِّكةً وتبتلعني إن جازفتُ بالنزول. أغلبُ جذوعِ الأشجارِ مائلةٌ وآيلةٌ للسقوط. توجدُ صخورٌ هرميةٌ متفرِّقة. غامرتُ بالقفزِ إلى صخرةٍ أكثرَ ارتفاعًا. كدتُ أن أسقط، تشبَّثتُ بقوة. ألمٌ مُفجع، جسدي متشقِّقٌ وعارٍ. نجحتُ بصعوبةٍ في الصعودِ إلى قمتها. أسمعُ الطبيبَ يصرخ: نزيفٌ داخلي، ثبِّتوه وأحقِنوه بمخدِّرٍ ليكفَّ عن الحركة. ساعةٌ وإحدى عشرةَ ثانيةً، لا تدَعوهُ يفلت.

هنا هتفَ أحدُهم: الدفاترُ جاهزة.

يردُّ الآخر: أينَ الأقلام؟ أطلبْ إذنَ صرفٍ مستعجل.

المخازنُ مغلقة.

اكسروا الأقفال.

الفصل الثالث عشر

أشعرُ بزوالِ انتفاخِ بطني. أسمعُ حواراتٍ متعدِّدةً من هناكَ وهنا، تتشابكُ وتختلطُ أحيانًا. يتحدَّثون هناكَ بأنَّهم أعادوا أعضائي التي وددتُ التبرُّعَ بها. هنا يحدثُ ضجيجٌ وصراخ. فهمتُ أنَّهم يبحثون عن نوعيةٍ خاصةٍ من الأقلامِ لتسجيلي كميتٍ بشكلٍ رسمي. صراعٌ بين هنا وهناك، وأسمعُهم يصرخون: ساعةٌ واثنتا عشرةَ ثانيةً، هم يسبقوننا هناك، لا يجب أن نتركَهُ يغادر. لقد رأى ما لا يحقُّ لأحدٍ رؤيتَهُ. نباحُ كلبي يبعثُ في نفسي بعضَ الطمأنينة. أراهُ يحثُّ المرأةَ على اللعبِ بساحةٍ خضراء. لأوَّلِ مرةٍ تبتسمُ، تطيعُهُ، تركضُ وراءَهُ.

مجدَّدًا، أشعرُ برغبةٍ جارفةٍ للتدخين.

يعودُ البرد. شخصٌ ما يدخلُ المشهدَ ويُعنِّفُ الذين هنا.

هل سيتركوني أغادر؟

الفصل الرابع عشر

للمرَّةِ الثانيةِ تهبُّ الريح، صوتُها أشبهُ بزئيرِ أسدٍ مُرهق. أنظرُ إلى الأسفلِ فأجدُ أمواجًا متلاطمةً من القارِ الأصفرِ الممزوجِ بلونٍ رمادي. لا أجدُ شيئًا أتشبَّثُ به فجذوعُ الأشجارِ تساقطت. استطعتُ رؤيةَ صخرةٍ قريبةٍ فيها ما يُشبهُ الكهفَ الصغير. القفزُ إليها مغامرةٌ خطرةٌ، والبقاءُ هنا مستحيل. حرَّكتُ ذراعي وصرختُ بقوةٍ، قفزتُ. لم أصدِّق أني قدرتُ الوصول. زحفتُ أتسلَّقُ وأنا أشعرُ بألمٍ مُرعبٍ في ساقي اليمنى، ربما مكسورة. لجأتُ إلى هذا الكهفِ الصغير.

هنا هدأتِ الريحُ وسمعتُ كبيرَ الأطباءِ يهمسُ لطاقمِه: قد نضطرُّ لقطعِ ساقِه، لا أفهمُ كيف أصابَها هذا العطب.
الجراح: ساعةٌ وثلاثَ عشرةَ ثانيةً ونحن...
يجبُ أن نُعيدَهُ، لنُحاول.

الفصل الخامس عشر

يتعالى ضجيجٌ يُشبهُ آلاتِ الحفرِ ورصفِ الطرق، رؤيتي مُشوَّشة، يهطلُ الثلج. أسندُ ظهري إلى الصخرة، ليتني أجدُ شيئًا لسترِ عورتي. أبدو مُحرجًا وكأني أتوقَّعُ أن يمرَّ أحدُهم من هنا. أرى المرأةَ تُتابعُ اللعبَ مع الكلبِ في الحديقة. يقتربُ منها الكلبُ وهو يعرجُ في مشيته، فتُصابُ بالهلعِ وتأخذهُ إلى البيطري.

هنا، يصرخُ أحدُهم: أزيلوا كلَّ هذه الصخورِ وكلَّ هذه الفوضى من هنا، سنبني برجًا سكنيًا مُريحًا يتَّسعُ للقادمينَ قريبًا.

صوتٌ آخر: يوجدُ أحدُهم فوقَ إحدى هذه الصخور، وصل منذ ساعةٍ وأربعةَ عشرَ ثانيةً ولم نقيدهُ كميت.

أسمعُ جدلَهم وحيرتَهم في تسميتي، ربما كان خطأً من ملاكِ الموت.

الثلجُ يُفرشُ لونَه الأبيض.

الفصل السادس عشر

اختفَتِ الأبخرةُ وأمواجُ القار، نصبتِ الآلياتُ أعمدةَ البرجِ السكني، إنهم سريعونَ جدًّا في هدمِ الصخور. جازفتُ بالمشي على الثلج، شعرتُ بدفءٍ غريبٍ في قدميَّ وزال الألم. أسمعُ همسًا خافتًا حولَ الكتابةِ بالأزرقِ أو الأصفر، لكني لم أفهم الفرق. أسمعُ جدلًا آخر.

أحدُهم لزميلته: أصدرَ كبيرُ الأطباءِ قرارًا بنقلِه إلى المستشفى العسكري. تسأله: لماذا؟ مرت ساعةٌ وندخلُ الثانيةَ الخامسةَ عشرةَ، قرارُهم فيه مخالفة؟

ردَّ بخوف: يخافونَ أن يتحولَ إلى زومبي.

أنتفضُ غضبًا، أجمعُ بعضَ الثلجِ في شكلِ كرةٍ وأرميها في الفراغ. أيعقلُ وجودُ مثلِ هذه الخرافات؟

حسنًا، سأظلُّ هنا، قد يرفضونني هناكَ وأعيشُ معزولًا. لماذا لا يُقيدونَ اسمي، هنا؟

الفصل السابع عشر

بدأت تتَّضِحُ معالمُ البرجِ السكني، تمَّ إصلاحُ الأرضية، سيحيطونَ هذا المبنى بسورٍ شائك. بقيتُ أركضُ دونَ توقُّف، وللمرةِ الأولى أشعرُ بالعطشِ وبدأتُ أبحثُ عن الماء. توقَّفتُ للراحةِ منتظرًا سماعَ حوارٍ أو رؤيةَ مشهدٍ من هنا أو هناك، لم ألتقِ بالموتى. تكثرُ الأسئلةُ في رأسي عن تطوُّراتِ الأحداثِ القادمةِ وهل سأعودُ للحياةِ بهذا الجسدِ ودونَ ذاكرة؟

برقَ في خيالي وميضُ مشهدٍ للطفلِ حليقِ الرأس. أراهُ يركضُ في الحقول، يمسكُ عودَ ذرةٍ ويشيرُ به إلى الشمسِ وكأنَّهُ في حوارٍ معها، لكني لا أسمعُ صوته.

يقطعُ تخيُّلي صوتُ صفاراتِ الإنذار. شخصٌ يمتطي دراجةً ثلجية، ربما أحدُ حرسِ هذا العالمِ يبحثُ عني.

إنَّهُ يقترب.

الفصل الثامن عشر

قرَّرتُ تسليم نفسي لسلطةِ هذا العالمِ الغريب، الذي لم أكتشف ماهيَّته. سأطلبُ كأسَ ماءٍ وسيجارة، وبعد ذلكَ يفعلونَ بي ما يريدون. لم أعدْ خائفًا من تسجيلي كمَيّتٍ أو إطلاقِ سراحي.

مضت ساعةٌ وسبعَ عشرةَ ثانية، بحسبِ حسابِهم للزمنِ هنا. اقتربَ سائقُ الدراجةِ الثلجية، وسلَّطَ على وجهي ضوءَ مصباحِه اليدوي. ركبتُ معه، وسرعانَ ما وصلنا إلى المسؤول. عرضَ لي كتالوجَ سكنِهم الجديدِ ومميّزاته، وطلبَ منّي التوقيعَ على عقدِ الإقامة. كانتِ الكتابةُ بلغةٍ غريبةٍ لا أعرفُها. رفضتُ التوقيعَ وطلبتُ المغادرة، وأخفيتُ رغبتي في الماءِ والتدخين.

طوى دفاترَهُ وأحالَني إلى شخصٍ آخر. تمَّ اقتيادي إلى مكانٍ يشبهُ فندقَ فيلمِ "دم شاعر" لجان كوكتو.

الفصل التاسع عشر

وددتُ اكتشاف ما بداخلِ غرفِ الفندقِ العجيبِ وأعيشَ لحظاتٍ سرياليَّة، لكنهم وضعوا عصابةً من الخيشِ على وجهي كأني في سجنِ أبو غريبَ أو غوانتانامو. قادوني إلى محطةِ قطار، عادت لي حاسةُ الشمِّ؛ روائحُ أبخرةِ قطاراتٍ تعملُ بالفحمِ الحجري، ضجيجٌ وفوضى عارمة. بقيتُ منتبهًا وهم ينادونَ بالأسماء، فأنا لا أتذكرُ اسمي.

فجأةً دفعني أحدُهم إلى داخلِ عربةٍ متهالكةٍ خُصِّصت لي، ولم أسمع كيفَ نطقوا اسمي.

أسمعُ صوتَ بوري مغادرةٍ باخرةٍ أيضًا.

يعجزُ خيالي عن رسمِ المكان. يشتدُّ عطشي وحاجتي إلى سيجارة.

أحدُهم وضعَ فوقَ جسدي شرشفًا لسترِ عورتي.

أغادرُ عالمَ الموتى، بدأ القطارُ بالتحرك. أشعرُ أنه يسيرُ للخلف، يُسرعُ بطرقٍ ملتوية.

الفصل العشرون

أشعرُ أنَّ حركةَ القطارِ فوضويَّةٌ في متاهةٍ لا نهايةَ لها. فجأةً انزلقَ القطارُ إلى هوَّةٍ عميقةٍ تفتقدُ للجاذبيَّةِ الأرضيَّة، جسدي كأنَّهُ ريشةُ عصفورِ السَّمان. سمعتُ صوتَ صعقاتِ البرق، توقَّفَ القطارُ بعد أن ارتطمَ بشيءٍ ما .

عدتُ أشعرُ بجسدي وقدرتي على التَّحرك، وأعجزُ عن إزالةِ عصابةِ الخيشِ التي تغطِّي رأسي ووجهي .

ضجيجٌ مرتبكٌ ثمَّ صمتٌ تام.

أسمعُ أحدهم يهتف: استعدناهُ أخيرًا.

آخرُ موجِّهًا خطابَهُ لي: مرحبًا بكَ إلى الحياةِ مرَّةً أخرى.

كبيرُ الأطباء: حافظوا عليهِ تحتَ المراقبة، يُمنعُ من الأكلِ والشُّرب.

الزِّيارةُ ممنوعة، والاقترابُ منه، يظلُّ الشَّاشُ على وجههِ إلى أن تتلقَّوا أوامري.

لا أرى شيئًا. بدأتُ أشمُّ روائحَ موادِّ التَّعقيم.

الفصل الواحد والعشرون

منعوا الماء، أسمعُ همساتِهم عن بروتوكولِ الدُّخول إلى غرفتي، يُسمُّونها الغرفةَ صفر. يُبلِّلون شفتي بالماء، لم أفهم لماذا لم أنطقْ بكلمةٍ إلى الآن. أنتظرُ زيارةَ المرأةِ والكلب، لكنَّ الزِّيارةَ لا تزالُ محظورة. أشعرُ أنَّ جسدي مرتبطٌ بأسلاكٍ وأجهزةٍ وأمصالٍ تُغذِّيني. في العنايةِ المركَّزة، ولكن لماذا يُسمُّونها باسمٍ آخرَ غريب؟

صوتُ ممرضةٍ يهمسُ لي: عدتَ إلى الحياة، ولكنَّها ستكونُ حياةً أخرى مختلفة. الكاميراتُ ترصدُ كلَّ حركة. لا أقدرُ قولَ شيءٍ، قد أفقدُ وظيفتي وأتعرَّضُ للمساءلة. فكِّر، هل تريدُ حقًّا البقاءَ هنا أم ستعود؟

فجأةً تعلو صفارةُ الإنذار.
تصرخُ الممرضة: لم أهمسْ بكلمة!

يدخلُ رجالٌ، يقتادونها بعنفٍ ويضربونها.
ضجيجٌ، ثمَّ صمتٌ مطبق.

الفصل الثاني والعشرون

يمضي الوقت ببطءٍ، دون مغامرات. رحلتي إلى العالم السفلي كانت مفعمةً بالتشويق، أما الآن فأشعر بالملل. أعجز عن الكلام، وخيالي ضعيفٌ لا يفعل شيئًا، لم ينقلني إلى عوالم جديدة.

ماذا أفعل هنا؟ وإلى متى سأظل في هذه الحالة؟

كل شيءٍ مرتبطٌ بقرار كبير الأطباء. سمعت همسًا خافتًا عن نقلي من الغرفة صفر إلى الغرفة واحد.

لا أعلم كيف يُحسب الزمن هنا.

أخيرًا تأتي لجنةٌ لفحصي. يدٌ تبدأ بإزالة الضمادات التي تلفُّ وجهي. أرى ضوءًا أزرق سماويًا خافتًا ومشوشًا.

يسعل أحدهم، تعمُّ الفوضى، ويتمُّ أخذ هذا الشخص إلى الخارج. امتدت يدٌ وسقتني عشرة ملم فقط من الماء. حركت رأسي أطلب المزيد.

الفصل الثالث والعشرون

جسدي ممدّد على سرير طبي، أشعر ببرودة تقرص أصابع قدميّ، لكني لا أستطيع تحريك أذرعي كالوطواط أو الجلوس. لم ينطق أحد باسمي، سمعتهم يتحدثون عن الحالة "صفر تسعة". لكل إنسان حيّ اسم، فلماذا أنا مجرّد رقم؟ وهل هناك ثماني حالات قبلي؟

زادت جرعات الماء إلى عشرين ملّيمتر. هذه الأمصال تجعلني أفقد الإحساس بجسدي وبهذا العالم.

تم نقلي إلى الغرفة واحد، لم أشعر بالفرق. أسمع أشخاصًا لا يكفّون عن الثرثرة. أخيرًا أدركت أنه التلفاز.

بدأت تتعاطف معي الممرضة التي تعطيني جرعات الماء. همست بخوف: "صفر تسعة، البروتوكول سيجعل حياتك قاسية".

ثم غادرت. أسمع صوت نباح الكلب، صوت خطوات بطيئة تقترب مني.

الفصل الرابع والعشرون

أسمع صوت إنذار الحريق. شخص ما يُحرّك السرير، رؤيتي ضعيفة جدًا. يضعني على كرسيٍّ متحرّك ويدفعني بخطواتٍ سريعة. ضجيج وركض، صعود وهبوط يذكّرني برحلة القطار من عالم الموت إلى الحياة. ظلام دامس، شيء ما يغطي رأسي وجسدي، ثم هدوء تام. كأنّني أخذت غفوة لبعض الوقت. يأتي نباح الكلب كأنّه بقربي.

أسمع صوت المرأة تهتف له بلطف: "تيودور، دعه يأخذ قسطًا من الراحة، إنّه ليس هنا بسبب تلك العقاقير اللعينة".

أفهم الآن، تم اختطافي من ذلك المكان.

تُغنّي المرأة بصوت ناعم: "سلمى يا سلامة، روحنا وجينا بالسلامة." ينبح الكلب، يركض، تركض خلفه.

أرى لون السقف الوردي، أشمّ رائحة زهرة القمر العطرة.

الفصل الخامس والعشرون

تطورت قدراتي على الرؤية والحركة بالتدريج، استطعت تحريك يديّ وطَيَّ ساقيّ. أعجز عن الكلام، لكني أبتسم كلما سَقَتْني المرأة الماء أو دَخَّنَتْ بالقرب مني. يحوي البيت حديقة تفوح بعطر زهرة اللِّيلَك البنفسجيَّة وزهرة القمر.

تَهمس لي المرأة: "أنا ليليث، سأهتمّ بك. أنقذتُكَ من أولئك وتلك العقاقير المخدِّرة. أيام قليلة ويذهب مفعولها، ثم ستقدر على الحركة والمشي. لن يعرف أحد مكانك، لن أسلِّمك لهم. أعلنوا عن جائزة مغرية".

ستفهم كل شيء لاحقًا. سوف يحرسك تيودور، إنّه ليس مجرد كلبٍ عادي.

سمعنا صوت طائرة "درون" تُحلِّق فوقنا. قفز تيودور وركض، وبعد بضعة دقائق عاد وهو يدفع الطائرة الصغيرة، يدور حولها وينبح.

الفصل السادس والعشرون

كنتُ في عالم الموتى، بالساعة الأولى نمتُ نومًا عميقًا، قضيتُ تسع عشرة ثانية مليئة بالأحداث. عدتُ للحياة وبقيتُ في الغرفة صفر ثم واحد. هأنذا في بيت ليليث أجد عناية خاصة، وقدراتي تتطور. أحضرت لي كرسيًا متحرِّكًا للتجول في حديقة المنزل ومشاهدة الطبيعة والكلب تيودور الذي يحرسني.

بدأت ليليث تصنع لي شرابًا خاصًا من أعشاب الزعتر وأوراق اليقطين ساعدني على وضوح الرؤية، لكن الأشياء مهزوزة.

حدث شيء غريب أربك ليليث وجعلها تنقلني إلى الدور السفلي من بيتها. فهمت أن المركز الطبي الذي كان يعالجني يريد استعادتي بأي ثمن، وأن الشرطة تبحث عني. تحدثت عن أن حراس العالم السفلي يسعون للوصول إليَّ.

الفصل السابع والعشرون

أخبرتني ليليث أن اسمي هايل، وأني أصبتُ في حادثة قطار خرج عن مساره، وجميع ركابه ماتوا واحترقوا. كنتُ الناجي الوحيد. لا أتذكر ما حدث. بدأت ليليث تتحدث عن نفسها، وقالت إنها امرأة مستقلة تريد ترميم خراب العالم وإعادة جماله.

بدأت تدربني على نطق كلمات بسيطة. فهمتُ منها أننا سننتقل بسرِّية تامة إلى جزيرة تينيريفي الإسبانية، حيث تملك بيتًا مطليًا باللون الأبيض.

لأول مرة، تذوقتُ ملعقة صغيرة من اليخنة الإسبانية التقليدية المصنوعة من البطاطا والخضروات وقطعة من لحم الأرنب.

تقبلتْ معدتي بصعوبة هذا الطعام، وشعرتُ بحاجتي للتدخين. فهمتْ ليليث ما أريده. تأملتْ علبة السجائر وقرأتْ بصوت مسموع: "التدخين يؤدي إلى الموت."

الفصل الثامن والعشرون

في الليلة الأخيرة قبل سفرنا إلى جزيرة تينيريفي، احتفلتْ ليليث وشربتْ زجاجة نبيذ كاملة. أعطتني رشفة واحدة وسمحتْ لي بأخذ نفسٍ واحد من سيجارتها. شعرتُ بالنيكوتين والنبيذ يتغلغلان في دمي، ثم تحدثتْ عن نفسها ورفضها لما يُقال عنها بأنها زوجة الشيطان، وأنها ترغب في أن يفهمها العالم ويقدمها فنان أو شاعر بصورة إنسانية. قالت: أنتَ شاعر، ربما ستفهمني وتقدمني يومًا بصورة مختلفة.

لأول مرة نطقتُ بعبارة: أنا شاعر؟

فرحتْ ليليث لسماعها صوتي وفتحتْ زجاجة نبيذ ثانية. أعطتني رشفة أخرى، شعرتُ بالدفء. اقتربتْ مني، وهنا نبح الكلب وبدأ يركض حولنا.

ركضتْ ليليث لتجهيز سيارة المغادرة.

لوسيفر يطاردنا. سنهزمه، سنغادر الآن.

الفصل التاسع والعشرون

ركبنا سيارة سوداء اللون، قادتها ليليث بمهارةٍ فائقة في طرقٍ ملتوية. أخبرتني أننا في غابات هويا باكيو، وأن رحلتنا طويلة وخطرة، حيث الجميع يريد القبض علينا: لوسيفر، الأطباء، وحراس عالم الموتى. لكنها أكدتْ بثقةٍ أننا سنهزمهم.

رددتُ العبارة بثقةٍ عالية. طلبتُ من الكلب أن يضع فوق رأسي قبعةً غريبة غطتْ رأسي ووجهي أيضًا. شعرتُ بالنعاس ثم حلقتُ في حلمٍ بعيد. رأيتُ الطفل حليق الرأس يجمع زهرات عباد الشمس، يركض في مكانٍ غريب، تتحرك فيه ظِلال مخيفة، وأسمع ضحكاتٍ لنساء.

يعلو نباح الكلب، وكأن السيارة تطير في بعض الأحيان. دخلنا منطقةً مليئة بالأحراش والثعابين الضخمة، حيث داهمتنا الأخطار من كل جانب.

الفصل الثلاثون

علقتْ سيارتنا بأرضٍ طينيةٍ رخوة، طلبتْ ليليث من الكلب الخروج ودفعنا بقوة، خرجنا من هذا المأزق. بقيتُ أشاهد الكلب تيودور يخوض معركةً صعبة ضد الثعابين المرعبة ومخلوقاتٍ أخرى أكثر بشاعة، رأيتهم يحيطون به، هاجموه، أحدهم التف حول عنقه. صرختْ ليليث: "دمِّرهم يا تيودور، أنت أقوى منهم."
لم يكن لدينا القدرة على مساعدته. تعالى الضجيج، ثم فرش الضباب ستارةً قاتمة، لم نعد نرى أو نسمع شيئًا. دمعتْ عيناي لما حلَّ بهذا الكلب الشجاع، وظلت ليليث صامتة وهي تمسك المقود. فجأةً سمعنا نباحه ورأيناه يقفز رغم جروحه الدامية.
فرحنا بهذا النصر. مع دخوله السيارة، أسرعتْ ليليث تقود بسرعةٍ لتخرجنا من هذا الجحيم.

الفصل الواحد والثلاثون

وصلنا إلى طريقٍ زراعيٍّ خالٍ من كلِّ شيء، بقيتُ أحاول مدَّ يدي لتداعب الكلب الجريح، الذي ظلَّ يلعق جراحه، يتأوَّه بصوتٍ خافت. ظلَّت ليليث تقود وتنظر من المرآة إلى وجهي وجسد تيودور الدامي، سمعتُ همسها بعباراتٍ فهمها الكلب وهدَّأت عليه بعض الألم.

سلكنا طريقًا فرعيًّا، فإذا بنا في بدايةِ أرضٍ صحراوية. واصلت ليليث القيادة إلى أن وصلنا إلى قلبِ صحراءَ قاحلةٍ مترامية الأطراف، لا ماءَ فيها ولا زرع. همستْ لنا ليليث: "أعلم أنها هنا، واحة الشفاء من كلِّ داءٍ التي كان يبحث عنها جلجامش وأنكيدو".

التفتت بالسيارة وسط الكثبان الشاهقة، تعطَّلت سيارتنا. هبَّت عاصفةٌ رمليَّة أحالت النهارَ إلى ليلٍ دامس.

الفصل الثاني والثلاثون

مضتْ عدة ساعات ونحن حبيسي السيارة، وكل لحظة يزداد جنون العاصفة التي دفنتْ الإطارات. تأوَّه الكلب وأغمض عينيه.

صرختْ ليليث: لا تذهب يا تيودور، إنه لوسيفر، يستخدم كل ألعابه ليعيدنا. سوف نهزمه، أعدكم بالنصر، بحيرة الشفاء ثم جزيرة الحلم.

فتح تيودور عينيه وزحف نحوي ببطء. أخرجتْ ليليث من حقيبتها زجاجة نبيذ، شربتْ عدة رشفاتٍ ثم سكبتْ لي كأسًا صغيرًا. أخذتُ ثلاث رشفات، نظر إليَّ تيودور. هزتْ ليليث رأسها قائلة: اسقه رشفة، تعيد إليه شجاعته وقوته. شرب الكلب بقية الكأس. زادتْ قوة العاصفة، تكاد تدفننا أحياء.

رغم ضجيج الريح، كنا نسمع قهقهة عالية.

ابتسمتْ ليليث، بدتْ مطمئنة، أشعلتْ سيجارة وناولتني أخرى.

الفصل الثالث والثلاثون

نشعر أن شلَّالاً من التراب ينهال فوق سقف السيارة، وبعضه يتسرَّب فوق رؤوسنا. همهمتْ ليليث بكلمات، نبح الكلب وجمع قواه لينهض. أشعر بأني قادر على تحريك يدي. دفعتُ الباب، وضعتْ ليليث يديها على المقود، وبدأتْ تحاول تشغيل السيارة. حاولتْ مرة تلو أخرى. ارتفع نباح تيودور، وأخيرًا تحركتِ السيارة، كأننا في عمق الأرض نسير بحركة لولبية.

نجحنا وخرجنا من قاع الصحراء إلى ظهرها. هدأتِ العاصفة ثم تلاشتْ.

فجأة هطل المطر. فتحنا النوافذ لننعم بهواء لطيف، لكن ليليث أمرتنا أن نغلقها. همستْ: فخ جديد. هذا ليس بمطر، إنه فخ جديد، لوسيفر.

زاد ألم الكلب، خارتْ قواه، وبدأ يغمض عينيه. نناديه ألَّا يغادرنا.

الفصل الرابع والثلاثون

زادت التعقيدات بوصولنا إلى مكانٍ مرعبٍ؛ هياكل عظمية ضخمة متناثرة. ساءت حالة كلبنا، ولم نعد نسمع أنفاسه. ظلَّت ليليث تقود بحذرٍ شديد، همستْ بصوتٍ مسموع: "نحن في الطريق الصحيح. هذه مقبرة عوج بن عنق، لا توجد على الخرائط ولم يخرج منها بشر. هذا المكان كان فردوس الكون، ثم سكنته مخلوقات عملاقة تصارعت فيما بينها. جفَّت الأنهار والبحيرات فماتوا، وبقيت واحة صغيرة جدًا، حيث نبع الحياة ومقصد الحالمين بالخلود".

في هذه اللحظة تذكَّرت ملحمة جلجامش. بقيتُ أتأمَّل ليليث وأسأل نفسي: أهي من روَّضت أنكيدو؟
شعرنا بهزَّة أرضية قوية، اصطدمت سيارتنا بعظم، ثم دخلنا داخل جمجمة بشرية عملاقة كأنها رأس جبل عظيم.

الفصل الخامس والثلاثين

بقينا داخل ظلمةٍ تامةٍ في جوف الجمجمة الكبيرة، فاجأتني ليليف بشجاعتها وخرجت من السيارة، مشتْ عدة خطوات، ثم ربطتْ حزام الأمان وطلبتْ مني التأكد من ربطه والتمسُّك بالكلب، بينما هي تحاول إعادة تشغيل السيارة. إذا بنا نفاجأ بتدحرج الجمجمة الضخمة. تمكَّنتْ ليليف من تشغيل السيارة والسيطرة عليها، وكأننا داخل لعبة فيديو مرعبةٍ مليئةٍ بالتحديات. تذكَّرت مغامراتي في عالم الموتى، أمسكتُ بالمقعد وبالكلب تيودور المحتضر.

خضنا معركةً غير متكافئةٍ مع لوسيفر، الذي يبدو أنه يملك جيشًا من الأعوان الأقوياء.

صرختْ ليليث: سوف نهزمهم يا هايل، قل لي شيئًا من قصائدك. تلعثمتُ، ثم قلت: ساقية الماء هناك ترقص عند بيضة الشمس العارية.

الفصل السادس والثلاثون

تمكَّنتْ ليليث من إخراجنا من الجمجمة الموحشة في لحظةٍ حاسمة، وقفنا نلتقط أنفاسنا وشاهدنا تدحرجها وسقوطها في هاويةٍ سحيقة ملتهبة. حرَّكتْ ليليث السيارة حيث وصلنا إلى طريقٍ حجريٍّ وعر. نظرتُ من النافذة، فكانت الصخور ذات حوافَّ حادةٍ كأنها سكاكين تعكس ضوء الشمس كأنها مرايا سحرية. نصحتني ألا أحدِّق في الضوء، فهمتُ أنه فخٌّ جديد لقتل الرافضين للموت.

همستْ ليليث: بمجردِ تحديقك لدقيقةٍ ستفقدُ عقلك وتركض نحو هذه الصخور، ثم تسلِّم نفسك إلى وحوش الشوباكبرة التي لها أشواكٌ على ظهرها. هي ليست ضخمةً جدًا لكنها خطرة، وأصبحتْ تنتشر في كل مكان، حتى في بلدك اليمن، أصبح مرتعًا لكل الوحوش ومصاصي الدماء.

الفصل السابع والثلاثون

سمعتُ اسم بلدي اليمن لأول مرة من ليليث. رأيتُ الطفل حليق الرأس وكأنه يقفز وأشار لي بيده.

صرختُ: "ليليث، خذي الطريق عن يمينك، هناك مخرج".

استغربتْ لكلامي، ترددتْ للحظات ثم نفذتْه. ظل الطفل يركض بمهارةٍ أمامنا، وأنا أخبر ليليث، فتطيعني مبتسمةً إلى أن خرجنا من الطريق الوعر المخيف. بحثتُ عن الطفل لكنه اختفى. سمعتُ تأوُّه الكلب، إنه حي.

شكرتْني ليليث، توقفتْ للحظات وخرجتْ لمعاينة الطريق. عادتْ وهمستْ إلى تيودور: "سنسلك طريق الغابة المتاهة، إذا تجاوزناه سنصل الواحة قبل الغروب".

سألتُها عن بلدي اليمن، ردتْ: "إنها كالغابة، تنافستْ وملكتْكم بلقيس لكنها فازتْ بالملك. أدركتُ أني ملكة نفسي.

معًا، لنهزم جيوش لوسيفر".

الفصل الثامن والثلاثون

أُصبتُ بالذعر منذ الخطوة الأولى في غابة المتاهة، حيث تنمو الأشجار الشوكية ذات الفروع الكثيرة بطريقةٍ عكسية؛ جذورها في السماء ورؤوسها تلامس الأرض. غابةٌ كالمتاهة، ومتاهةٌ كالغابة. علقتْ سيارتنا، حاولتْ ليليث أن تخرجنا لكنها فشلتْ. أعجزُ عن المشي، والكلب تزداد حالته سوءًا.

خرجتْ ليليث، حاولتْ دفع السيارة، وبعد جهدٍ شاقٍ تمكنتْ من تخليصنا من فخٍ قاتل.

ابتسمتْ وهي تلتقط أنفاسها: "هنا كل شيءٌ قاتل، قد تدوس قدمك على لغمٍ شوكي، فتخرج من الأرض أشواكٌ كفكي سمك القرش، تقصُّ قدميك في ثانية، أو تواجه مصاصات الدماء وأشجارًا مثل أفاعي الأناكوندا".

تسير سيارتنا ببطءٍ وحذرٍ شديد، ومع ذلك وقعنا في فخٍ جحيمي.

الفصل التاسع والثلاثون

وقعنا في فخٍّ نصبته لنا الأشجار العمياء، تقاذفتْ سيارتنا كأنها لعبةٌ صغيرة. أوقفتْ ليليث المحرك وقالت: "الأشجار العمياء تحبُّ المرح ولها حاسة شمٍّ قوية، قد تلهو بنا لساعةٍ أو أكثر. الخطر الأكبر من الأشجار البكماء والصمّاء التي لها حاسة بصرٍ فظيعة، وخاصة ذلك النوع الذي يشبه الأناكوندا، فهو قادر على ابتلاع دبابة 'أبرامز إم 1' وهضمها في ربع دقيقة".

هنا تحرَّك كلبنا قليلاً ثم بدأ يحاول النباح. أصبتُ بالذهول والخرس. أشارتْ ليليث إليه أن يلزمَ الهدوء، لكنه لم يستمع لها. نهض ونبح بكل قوَّته. المفاجأة أنَّ إحدى الأشجار حملتنا برفقٍ وركضتْ بنا. نشبتْ معركة بين هذه الأشجار وأخرى أكثر وحشية.

الفصل الأربعون

بفضل الشجرة العمياء الطيّبة، نجونا بأعجوبة ووضعتنا عند مخرج الغابة. كنا غير مصدِّقين لحصول هذه المعجزة. تحرَّكت ليليث بنا وهي تغني أغنية "الأساطير لا تموت أبدًا". عاد تيودور إلى سكونه، شعرتُ أن جسده يرتجف .

سارعت ليليث تقود بسرعةٍ وحذر، وكأنها تعرف وجهتنا. عادت تغني بصوتٍ مرتفع: "الأساطير لا تموت أبدًا، لقد أصبحوا جزءًا منك، ارفع رأسك الآن، عندما يناديك العالم، هل يمكنك سماعهم ينادون باسمك؟"

زادت سرعتها، وإذا بنا نجد أنفسنا في منحدرٍ ترابي كأنه يقودنا إلى حفرة نهاية الكون .

قالت : أتعلم يا هايل أن غابة المتاهة منفذ حدودي يطلُّ على العالم السفلي، ولوسيفر زرع أعوانه وهذه الأشجار المتوحِّشة.

الفصل الواحد والأربعون

قُذِفَ بنا المنحدرُ الترابيُّ إلى صحراءَ أخرى، والمِفزِعُ، رملُها الأحمر. توقَّفتْ ليليث للحظاتٍ، كأنَّ الخارطةَ في رأسِها، ثمَّ انحرَفتْ تجاهَ تلةٍ برتقاليةِ اللون. وضعتُ يدي على جسدِ الكلبِ المنهَك، نظرَ لي ثمَّ هبطَ رأسُه ولم أعد أسمعُ أنفاسَه.

رأيتُ ليليث تُراقبُني عبرَ المرآةِ الأماميةِ، كأنَّها واثقةٌ من وصولِنا إلى واحةِ الشفاء.

زادَتْ سرعةُ السيارةِ، انعطفتْ لليسارِ ثمَّ اليمين، حامَتْ حولَ التلةِ. فجأةً انقلَبَتْ بنا السيارةُ، تدحرَجْنا ووقعْنا في طرفِ حفرةٍ كبيرة. أخرجتُ الكلبَ وبذلتُ قُصارى جُهدي للخروج. فرشَتْ ليليث بطانية كبيرة ووضعتْ عليها تيودور، ثمَّ زحفْتُ حتى وصلتُ بجانبه. هنا أكملتْ السيارةُ تدحرُجَها إلى أنْ وصلتِ القاعَ، فإذا بالتربةِ تبتلعُها.

الفصل الثاني والأربعون

بقيتُ متشبّثًا بالكلبِ والبطانية، سحبَتْنا ليليث إلى أنْ خرجْنا من الفخ. فوجئنا بأنَّ أمواجًا ضخمةً من رملِ التلةِ البرتقالية تحرَكَتْ بشكلٍ متدفقٍ إلى أنْ طمستْ تلك الحفرة. هدأتْ حركةُ الرمالِ والريح. بذلتْ ليليث مجهودًا جسديًّا خارقًا إلى أنْ بدأنا نرى تلاشيَ الرملِ الأحمرِ ونرى بعضَ مظاهرِ الحياة .

توقَّفنا ننظرُ بفرحٍ، نشاهدُ رتلًا من النملِ يحملُ عودًا أخضر. تحمَّستْ ليليث وزادَتْ قوتُها. رأينا أعشابًا ملونةً غريبةَ الشكلِ ثمَّ شجيراتٍ قصيرة.

صرختْ ليليث: تيودور، عزيزي سنصل. هايل، سوف تستعيدُ قواكَ. علينا الحذر، عندما نصلُ الواحةَ سنجدُ ثلاثَ بركِ ماءٍ: واحدة شفاء، والثانيةُ سقم، والثالثُ موتٌ زُعاف.

كأنَّنا في عالمِ ألفِ ليلةٍ وليلة.

الفصل الثالث والأربعون

تقدَّمْنا أكثرَ فإذا بنا ندخلُ منطقةً تمتازُ برملِها الأزرق. استقبلتْنا عشراتُ الفراشاتِ البيضاء، وحامتْ حولَنا ثمَّ قادتْنا إلى الواحة. أشياء لم يتخيلْها بشرٌ ولا جانٌ: عصافيرُ بأربعةِ أجنحةٍ ونوارسُ تطيرُ بلا ريش. فعلًا وجدْنا ثلاثَ بركٍ صغيرةٍ متشابهة. يضجُّ المكانُ بشجيراتٍ وثمارٍ وعطور. حذَّرتْني ليليث من لمسٍ أو حتى التفكيرِ في لمسِ شيء. فهمتُ أنَّ كلَّ شيءٍ هنا قد يكونُ شفاءً أو داءً عضالًا أو موتًا مرعبًا. الحياةُ والموتُ يجتمعان جنبًا إلى جنب. سحبَتْنا ليليث إلى ظلِّ شجرةٍ وقالت: لنستظلَّ قليلًا تحت شجرةِ اليقطين. لا أدري كيف نختارُ ماءَ الحياة. كلُّ شيءٍ متشابه.

سألتُها: هل ما نراه حقيقيًّا أمْ حلم؟

الفصل الرابع والأربعون

بعد جلوسِنا لأكثرَ من ساعةٍ تحت شجرةِ اليقطين، شعرتُ وكأنَّ قوةً خارقةً ترمِّمُ جسدي. نهض الكلبُ تيودور، لكنه لا يزالُ ضعيفًا. ظهرتِ الحيرةُ تسيطرُ على ليليث، وكنتُ أظنُّها عليمةً بكلِّ شيء. ضحكتْ وقالت: "ألا يوجدُ لدى أحدِكما فكرةٌ أو شجاعةٌ لفعلِ خطوةٍ حتى وإنْ كانت تضحيةً من أجلي؟ "

بقيتُ صامتًا، لكنَّ تيودور نبحَ في وجهِها، أغضبَها تصرفُه، ثمَّ ابتسمتْ له ليهدأَ قليلًا .

تمنيتُ أنْ يظهرَ الطفلُ حليقُ الرأسِ ليرشدَنا إلى البركةِ الحقيقيةِ للنجاة. كلُّ شيءٍ هنا يغريكَ أنْ تمسَّه وتتذوقَه .

وقفتُ أتأملُ البركَ الثلاث. الغريبُ أنها متجاورةٌ جدًّا، والفاصلُ بينَها ممرٌّ مفروشٌ بالعشبِ الذهبيّ والزُّرقةِ، عرضُه أقلُّ من نصفِ متر.

الفصل الخامس والأربعون

اقتربَ الكلبُ والتصقَ بي وكأنَّه يريدني أن أثقَ به، ثمَّ مشى خطواتٍ وهزَّ رأسَه يريدني أن أتبعَه. هتفتْ له ليليث لكي تلاعبَه، لكنه لم يأبهْ بها. صرختْ فيه، فنبحَ في وجهِها. خاطبتْني قائلة: "في مثلِ هذه الأمكنةِ قد نفقدُ عقولَنا، إنَّه يتصرفُ بطريقةٍ وقحةٍ، أخافُ أنْ يقلبَ علينا هذا العالم فتتحولَ الجنةُ إلى جحيم. إنَّه يثقُ بك أكثر، انظرْ ماذا يريد، ثمَّ تحوَّلْ معه إلى إحدى البرك وادفعْه فيها ".

أُصبتُ بالصعقةِ من فكرتِها الشريرة. كنتُ أثقُ فيها ثقةً مطلقة. ظننتُ أنَّ وصولَنا نصرٌ على لوسيفر؛ لكنَّ يبدو أنَّ لوسيفر بداخلِ كلِّ واحدٍ منا. لمحتُ الطفلَ حليقَ الرأسِ يبتسمُ، بقربِ تيودور.

الفصل السادس والأربعون

كأنَّ الكلبَ يريدُ مغادرةَ المكان، العودةُ إلى أين؟ هربنا من المطارداتِ وخضنا كلَّ تلك المعاركِ وها نحن في معاركٍ من نوعٍ آخر. اقتربتْ ليليث تعتذرُ وهمستْ: "أنا لم أقلْ شيئًا، لا تخبرْه، قد يتحولُ إلى وحشٍ ويأكلَنا. هنا يزيدُ خيالُ الكائناتِ ألفَ مرةٍ، ألا ترى طيورًا تطيرُ بلا أجنحةٍ ولا ريش؟ إنَّه الخيالُ الذي منحها هذه القوةَ الخارقة ".

بدأتُ بتهدئةِ تيودور، كلامُ ليليث زرعَ الخوفَ في نفسي منهُ ومنها. كنا نفهمُ ونساندُ بعضَنا البعض، هل ستفرّقُ الفردوسُ بين أهلِها وتكونُ مسرحًا لصراعاتٍ من نوعٍ آخر؟

أصرَّ تيودور على المغادرةِ، نادته وغنَّتْ له: "الأساطيرُ لا تموتُ أبدًا". عاد لينبحَ في وجهِها.

الفصل السابع والأربعون

ظننتُ أنَّ الوصولَ إلى واحةِ الشفاء سيكونُ حدثًا سعيدًا، كلما بقيتُ تحتَ شجرةِ اليقطين تعودُ إلى رأسي صورًا من الماضي، لكني أعجزُ عن تكوينِ شكلٍ لهويتي الماضية. يهذي خيالي ببعضِ قصائدَ كتبتُها عن وطنٍ ضائعٍ تأكلُه الحروب، وقصصِ نساءٍ جميلاتٍ، وحلمِ الحريةِ والعشق .

أكدَّ الكلبُ رغبتَهُ في تركِ هذهِ الجنةِ بخطواتٍ للخروجِ منها. اقتربتْ ليليث، باغتتْهُ ودفعتهُ بقوةٍ أسقطتْهُ في البركةِ الأولى. بقيتُ كالمشلولِ، ابتعدتْ ليليف لترى ما سيحدثُ له .

نبحَ تيودور ثم صمتَ واختفى جسدُه. ظهرتْ فقاعاتٌ وتضخمتْ. أدركتُ أنها بركةُ السقمِ أو الموت. مرتِ الدقائقُ بطيئةً جدًا. فجأةً هطلَ ضبابٌ كثيفٌ جدًا، شعرتُ كأني عدتُ إلى عالمِ الموتى.

الفصل الثامن والأربعون

انقشعَ الضبابُ، اقتربتْ ليليث، تراجعتُ خائفًا أحتَمي بشجرةِ اليقطين، رأيتُ لونَ وجهِها وجسدِها يتغيرُ ويتحولُ إلى شكلٍ يشبهُ شخصيةَ فيونا، هتفتْ: لا أحدَ يمكنه الوصولُ إلى هذا العالمِ المفقودِ لوحده، كنتُ مجبرةً أن أحضرَ رفيقين، لا أريدُ الجمالَ للخلودِ، هناكَ مليونُ خللٍ في هذا الكونِ الذي يظلِمُ المرأةَ وهدفي تحريرُها، ضحيتُ من أجلِكم وحانَ الوقتُ لردِّ الجميلِ .

ثم صمتتْ كأنها بدأتْ تدركُ تحولَها إلى فيونا، ضحكتْ بشكلٍ هستيري، عادت لتقتربَ نحوي، رددتْ: سقطَ تيودور واختفى إذن لم تكن بركةَ الحياةِ، الآنَ دورُك للمغامرةِ، اقفزْ إلى الثانيةِ قد تكونُ مليئةً بماءِ الخلودِ، لن تستطيعَ مقاومتي فأنا أمتلكُ بهذا الجسدِ مئةَ قوةٍ.

الفصل التاسع والأربعون

اقتربتُ من حافةِ البركةِ الثانيةِ، رفضتُ القفزَ، لا أملكُ قوةَ مجابهةِ ليليث أو فيونا ذاتِ الجسدِ الأخضرِ، ثمَّ تحوَّلَ إلى اللونِ الأصفرِ.

صرختْ: لا وقتَ لدينا أيها الحالمُ الضائعُ، كلُّ ثانيةٍ ستجعلُ جسدي يزدادُ بشاعةً، ليتهُ يظلُّ في شكلِ فيونا، فهي أميرةٌ جميلةٌ وطيبةٌ، سأصبحُ أبشعَ من إليزابيث باثوري، بمقدورِك ألا تجلبَ الخرابَ للكونِ بتضحيتِك .

أوشكتُ على الهلاكِ. فجأةً، قفزَ كائنٌ غريبٌ في شكلِ ضفدعٍ ضخمٍ مجنحٍ ودفعَ ليليث إلى البركةِ. أسقطَها. قفزتُ بعيدًا.

صرختْ ليليث، تصاعدتْ فقاعاتٌ ضخمةٌ جدًا بلونٍ وأبخرةٍ صفراء .

اقتربَ مني هذا الكائنُ، خاطبني بتودٍ: أنا تيودور، لا تخفْ مني يا رفيقي، انظرْ، أوقعتُها في الهلاكِ.

الفصلُ الخمسون

سمعنا آهاتِ ليليث، سألني الضفدعُ المجنَّحُ: مبارك لك، الفائزُ بالخلودِ، لماذا تتردّد؟

هنا رأيتُ الطفلَ حليقَ الرأسِ يشيرُ لي بإشارةِ "لا."

قلتُ: لا يوجدُ شيءٌ مضمونٌ، قد تكونُ فخًا من نوعٍ آخرَ وضعهُ لوسيفر أو غيره. لدي ألفُ سؤالٍ وسؤالٍ. ما رأيكَ أن نتركَ المكانَ ونذهبَ إلى جزيرةِ تينيريفي، حيثُ السلامُ والبيتُ الأبيضُ وحديقةُ عبادةِ الشمسِ .

فرحَ تيودور وردَّ مسرورًا: سأجيبكَ على بعضِ الأسئلةِ حولَ ليليث ولوسيفر وما سمعتَهُ عنكَ. أنا ضفدعٌ مجنَّحٌ الآن، اركبْ فوقَ ظهري، أعدكَ أن أوصلَكَ إلى الجزيرةِ، الحلمِ وليس الوهمِ.

امتطيتُ ظهرَ تيودور، ارتفعَ بي، سرعانَ ما ضربَ المكانَ هزةٌ قويةٌ وجثمَ فوقهُ ضبابٌ كثيفٌ.

الفهرس

الإهداء 3

الفصل الأول 4

الفصل الثاني 5

الفصل الثالث 6

الفصل الرابع 7

الفصل الخامس 8

الفصل السادس 9

الفصل السابع 10

الفصل الثامن 11

الفصل التاسع 12

الفصل العاشر 14

الفصل الحادي عشر 15

الفصل الثاني عشر 16

الفصل الثالث عشر 17

الفصل الرابع عشر 18

الفصل الخامس عشر 19

الفصل السادس عشر.....20
الفصل السابع عشر 21
الفصل الثامن عشر.....22
الفصل التاسع عشر 23
الفصل الواحد والعشرون.....26
الفصل الثاني والعشرون.....28
الفصل الثالث والعشرون.....29
الفصل الر ابع والعشرون 30
الفصل الخامس والعشرون.....31
الفصل السادس والعشرون.....32
الفصل السابع والعشرون 33
الفصل الثامن والعشرون.....34
الفصل التاسع والعشرون 35
الفصل الثلاثون 37
الفصل الواحد والثلاثون.....38
الفصل الثاني والثلاثون.....39
الفصل الثالث والثلاثون 40

الفصل الرابع والثلاثون 41
الفصل الخامس والثلاثين 42
الفصل السادس والثلاثون 43
الفصل السابع والثلاثون 44
الفصل التاسع والثلاثون 46
الفصل الأربعون 47
الفصل الواحد والأربعون 48
الفصل الثاني والأربعون 49
الفصل الثالث والأربعون 50
الفصل الرابع والأربعون 51
الفصل الخامس والأربعون 52
الفصل السادس والأربعون 53
الفصل السابع والأربعون 54
الفصل الثامن والأربعون 55
الفصل التاسع والأربعون 56
الفصلُ الخمسون 57